المبحث الثاني

تزكية القيم الصَّالحة

سبق الحديث -في الباب الأول- عن تميُّز المجتمع السعودي في تعامله مع القيم والتقاليد الإسلاميَّة ، والحديث هنا إشارةٌ إلى آثار التزام المملكة بالشريعة الإسلاميَّة في تزكية القيم الصَّالحة ورعايتها ونفي القيم الفاسدة .

إنَّ القيم في أساسها صفاتٌ أو قواعد للوجود الإنساني المتفوِّق على الوجود الحيواني، وهي مغروسةٌ في فطر الناس ، ولذا فهي إنسانيَّة يشترك فيها البشر كلُّهم في أصل فطرهم .

ولأن الإسلام دين الله خالق هذه الفطرة فقد أنزله تعالى متوافقاً مع ما أودعه فيها من مبادئ إيمانيَّة وقيم خلقيَّة ، فجاءتْ الشريعة مُحلِّةً للطيبات محرِّمةً للخبائث ، داعيةً إلى المعروف ناهيةً عن المنكر[1] ؛ أي مقرَّة للقيم الفاضلة ومنفرة من الرذائل المقابلة لها .

ومع ذلك فإن القرآن والسنة لم يكتفيا بإقرار تلك القيم الفاضلة وإنما رَسَما منهج تحقيق هذه القيم في الواقع البشري الفردي والاجتماعي، وقد التزم المسلمون الأوائل بهذا المنهج فبسقتْ لهم حضارةٌ تميَّزتْ بأنها حضارةُ قيمٍ إنسانيَّةٍ لم تقارنها حضارةٌ أخرى .

---

(١) يقول ابن القيم بشأن الآية الكريمة التي جاء فيها عن الرسول ﷺ : ﴿ **وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ** ﴾ الآية رقم (١٥٧) من سورة الأعراف . مبيناً أنَّ المقصود بالطيبات والخبائث ما تعرفه العقول السَّليمة قبل أن تأتيهم الشريعة : « فلو كان كونه معروفاً ومنكراً وطيِّباً وخبيثاً إنما هو لتعلُّق الأمر به والنهي عنه لكان بمنزلة أن يقال : يأمرهم بما يأمرهم به وينهاهم عما ينهاهم عنه، وأيُّ فائدة في هذا، وأيُّ علمٍ يبقى فيه لنبوَّته » . مدارج السَّالكين، ١/ ٢٣٥، دار الكتاب العربي، بيروت .

ولا شكَّ أن المسلمين بعد القرون الأولى قد ضعف التزامهم بتلك القيم فسادتْ حياتهم قيمٌ بديلةٌ تقرب أو تبعد عن تلك القيم الإسلاميَّة ، سواءٌ في ذلك حياتهم البدويَّة أو حياة المدن .

وحينما جاءتْ الدعوة السلفية -كما سبق القول- أعادتْ في الجزيرة العربيَّة كثيراً من القيم الإسلاميَّة لحياة أتباعها ، وعزفت بهم عن القيم التي توارثوها على خلاف تلك القيم .

وإذا نظرنا في آثار التزام المجتمع السعودي بالإسلام في إعلاء تلك القيم وتزكيتها فلا بدَّ لنا أن ندرك **موقع القيم في العالم المعاصر** .

إنَّ العالم اليوم يتغنَّى بالقيم الإنسانيَّة ويدعو إليها ويقيم لها المنظَّمات والإعلانات، والبشريَّة تتفق على عناوين تلك القيم « الحقّ - العدل- الكرامة الإنسانيَّة- الوفاء . . . . إلخ » لكنها تختلف في مضامين هذه القيم فيما بينها ، وفيما بينها وبين الإسلام ، وإن لم يكن ذلك في كل المضامين ، فغالب النظم الخاصة بالدول ، أو الدوليَّة ترى مثلاً أنَّ قتل القاتل عمداً ظلمٌ، وأنَّ حدَّ الزَّاني اعتداءٌ على حريَّته . . . ونحو ذلك مما هو مصادمٌ صراحةً للقيم الإسلاميَّة وشريعة الله .

وعموماً فإنَّ عامة قيم الفضيلة التي فطر الله عليها البشر وجاءتْ بها الأديان قد سُحِقَتْ تحت وطأة المذاهب الماديَّة والنظريَّات الإباحيَّة في هذا العصر نتيجة انحسار توجيه الدين للحياة، وهو الذي كان يرعى تلك القيم ؛ وأقصد بالتوجيه إشاعة هذه القيم بصفتها عناصر أساسيَّةً لا تستقيم حياة الإنسان بدونها ، حيث قامت الفلسفات المحاربة له بتأكيد تهافت هذه القيم وأنها تفقد أيَّ أساسٍ حقيقيٍّ لها ، لا فطريٍّ ولا دينيٍّ ، وأنها مجرَّد أمزجةٍ

خاصَّة أو إفراز لأوضاعٍ ماديَّة ، وكل ذلك نتيجة تفسيرها الحيواني للإنسان ورفضها الدينً[1] . ولقد كانً من أسباب الحرب المقامة على القيم أنَّ رجال الدين في العصور الوسطى الغربية ضمُّوا التقاليد والأعراف التي سادتْ في جوّ الكنيسة فترةً من الزمن إلى القيم الأساسيَّة في ثباتها وضرورة التشبُّث بها من كلِّ الأجيال على كل الأحوال .

وهذا ناتجٌ عن الجهل بالدين وصلته بالحياة ؛ ولذا نجد أن بعض المسلمين في العصور المختلفة نتيجة جهلهم بالإسلام يربطون به -أي دين الإسلام- كلَّ ما توارثوه من تقاليد وعادات حتى ولو كانت من الوسائل التي يسوغ فيها التغير ، أو أحياناً تقضي المصلحة الشرعيَّة هذا التغيُّر ، فيربطون به التقاليد والأعراف ، ويجعلون الخروج عن شيءٍ منها إخلالاً بالالتزام بالإسلام .

والمنطق الصحيح أن القيم نوعان :

- نوعٌ ثابتٌ مقرَّرٌ بالنصوص الشرعيَّة لا مجال للتحوُّل عنه مهما تغيَّرت الظروف والعصور ، وهو القيم العليا بمضامينها المحدَّدة شرعاً ، مثل : « العدل والإحسان، والحق والوفاء، والصدق والحياء، والبرّ والتقوى، وحفظ المصالح ودرء المفاسد وسائر شعب الإيمان وخصاله المقرَّرة بالكتاب والسنة » .
- ونوعٌ مرنٌ قابلٌ للتلوُّن بحسب البيئات ومواضعات الناس، ويدخل في

---

(١) يقول إنجلز محدّداً الموقف المادي الماركسي من الأخلاق : « وهكذا فإننا نرفض كل محاولة لإلزامنا بأيَّة عقيدة أخلاقيَّة مهما كانتْ على اعتبارها شريعةً أخلاقيَّةً أبديَّةً نهائيَّةً وثابتةً أبداً ، بحجَّة أن للعالم الأخلاقي مبادئه الدائمة التي تنهض فوق التاريخ . . إننا ننادي على النقيض من ذلك بأن سائر النظريات الأخلاقيَّة كانت نتاجاً لأوضاع المجتمع الاقتصاديَّة السائدة في زمنها » . مذاهب فكرية معاصرة ، لمحمد قطب، ص٣٩٧، الطبعة الأولى ،١٤٠٣هـ، دار الشروق، بيروت .

هذا ما يسمَّى بالأعراف والتقاليد، فهذه لها اعتبارها الشرعي ما دامتْ في إطار ما رسمه الشرع، فالكرم وأعمال البر والتطوّع بالمال والجهد والجاه ونحوها لها صورٌ عديدةٌ تحكمها أوضاعُ الناس وبيئاتهم ، وهي شرعيَّةٌ ما دامتْ في الإطار الشَّرعي .

ومثل ذلك في علاقات الناس وآداب تعاملهم وزواجهم وتنظيم بيوتهم وألبستهم وغيرها، فهي وإن كانتْ من الإسلام باعتبار كونها مباحةً أو مشروعَةً لأنها تحقق مصالح شرعيَّةً، إلا أنها لا تنتقل من صورها الوقتيَّة لتصبح قيمةً ثابتةً يُقْسَرُ الناس عليها على تفاوت أوضاعهم .

الثوب السعودي -مثلاً- يُعد لباساً شرعيّاً في صورته التي استوفى بها شروط اللِّباس بعدم التشبُّه بالكفار ، وكونه ساتراً لما ينبغي ستره ونحو ذلك، لكنه لا يملك صفة الثبات التي تقضي بفرضه على كلِّ مسلمٍ ، وعدِّ تركه ثلمةً في دين تاركه .

إنَّ اللِّباس الباكستاني -مثلاً- وهو مختلفٌ عن الثوب السعودي هو شرعيٌّ أيضاً باستيفائه شروط اللِّباس في الإسلام ، وهكذا .

وإذا كان الأصل في المجتمعات الكافرة الانحراف في مجال القيم سواءٌ الثابتة منها والمتغيِّرة، فإنَّ المؤسف أنَّ كثيراً من مجتمعات المسلمين قد حدث فيها الانحراف في هذا المجال قليلاً أو كثيراً .

فالقيم الثابتة على الرغم من تبنِّي أكثرها شعاريّاً وإعلاميّاً إلا أنه يصاغ لها مضامين لا تتسق مع المعاني الشرعيَّة بقدر اتساقها مع مضامين مخالفة مستمدَّة من الأمم الأخرى التي نقلتْ منها هذه البيئات المسلمة أنظمتها وتقاليدها وأنماطَ حياتها .

وأمَّا القيم المتغيِّرة فإنها تجاوزت الحدود الشرعيَّة مضاهاةً لطرائق الحياة الغربيَّة ، في العلاقات وبالذات بين الجنسين حيث الاختلاط والتبرُّج ، وفي مصاحبة الكلاب وشيوع الخمور وإهمال الدين . . . إلخ .

ولقد حاولتْ -والحق يقال- الشعوب الإسلاميَّة بدافعٍ من دينها وخوفاً من ذهاب هويَّتها التماسك أمام الغزو القيمي لحياتها ، ولكن هذا الغزو كان من القوَّة بحيث فتَّتَ هذا التماسك مدعوماً بالاستعمار والاستشراق والمستغربين من أبناء الأمة قادةً ومفكِّرين .

وإزاء هذه الوضعيَّة المتقاربة لعامة مجتمعات المسلمين فإن المجتمع السعودي بحكم مؤهِّلاته التي أفَضْنا في الحديث عنها ، وثمرةً لتطبيقه الإسلام في مساره الشعبي والحكومي، استطاع أن يتماسك أمام الغزو القيمي الغربي ، بل استطاع أن يهذِّب كثيراً من القيم القائمة في المجتمع لتتزكَّى وتنسجم مع المنهج الإسلامي السَّويِّ ، كبعض الأعراف القبليَّة ، أو العادات الشَّائعة في بعض النواحي التي لم تتكثَّف فيها الدعوة في العهود السَّابقة .

ونكتفي ببعض إشارات إلى تزكية القيم الصَّالحة في مجتمعنا السّعودي :

* لأن القيم التي يتبنَّاها المجتمع هي **القيم الإسلاميَّة ذات المرتكز الفطري** ؛ لذا أخذت الفطرة موقعها في تدعيم القيم ، والتعامل معها سواءٌ من مؤسسات التوجيه والتربية أو في نطاق الشعور والعمل المتبادل بين الناس .

وهذا خلاف ما أخذتْ به بعض المجتمعات التي حاولتْ قياداتها الفكريَّة والسياسيَّة بناء القيم وتوجيه حركة المجتمع وفق النظرات المُبْتَسَرة ، المبنيَّة على أسس ضعيفة ، كالاستقراء الناقص والاستبيانات المسحيَّة المنحازة ونحوها ، أو تُبْنَى على أساسٍ فلسفات لا تتفق مع المنهج الإسلامي الذي يعيشه المسلم في أعماقه .

فحينما يقول بعض الاجتماعيِّين : إنَّ مبدأ إكرام الضيف قد انتهى بصفته قيمةً محمودةً ، نتيجة التغيُّرات الحضاريَّة والاجتماعيَّة ، كقيام الحياة على المصالح المجرَّدة من الروافد الخلقيَّة ، وقيام البدائل الماديَّة كالفنادق والمطاعم . . . ، وإن هذا المبدأ كان مجرَّد استجابةٍ لحاجة ماديَّة في زمن مضى .

إنَّ كلَّ ذلك لا قيمة له لدى الناس ذوي الفطر السَّليمة ، وسيبقى إكرام الضيف هاجساً ينبعث كلَّما شعر الناس بمناسبته إلا لدى أناسٍ مُسِخَتْ فطرهم وتحكَّمتْ المادة في حياتهم بحيث صاروا لا يرون لعملٍ ليسَ له مَردودٌ ماديٌّ عليهم أي قيمةٍ ولا إليه اندفاعٌ .

ومثالٌ آخر نسوقه لبيان قيمة هذا العنصر وهو « دعوة الوطنيَّة » التي تحوَّلتْ في بعض المجتمعات إلى عقيدة إيمانيَّة المعبود فيها الوطنُ الذي جعل إلهاً ينبغي -وفق منهج أصحاب هذه العقيدة- أنْ يمنح التعظيم والتقديس كلَّه ، وأن يكون حبُّه أعلى من كلِّ حبٍّ : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ** ﴾[1] ، بل يحبُّونهم أشدَّ من حبِّهم لله .

وفي مقابل ذلك يشتطُّ آخرون ردَّةَ فعلٍ لصنيع أولئك ، فينكرون أيَّ قيمة للوطن في وجدان الإنسان ، وأي حق له عليه ، وأن الأوطان سيان بالنسبة إليه ، ويسوقون شواهد التضحية بالوطن في سبيل العقيدة أو الجوانب الماديَّة الأخرى .

ولكن منطق الفطرة لدى عموم الناس عدلٌ بين التفريط والإفراط ، فالوطن الذي تَرَبَّى فيه الإنسان وغُذِّيَ بخيراته ، وتشكَّلتْ شخصيَّته في ضوء حركته الاجتماعيَّة له موقعٌ في النفس ، وله حقٌّ على الشخص وتميُّزٌ على البلاد الأخرى[2] .

---

(١) الآية رقم (١٦٥) من سورة البقرة .

(٢) ولهذا وجد تغنِّي الشعراء بالأوطان صدًى في نفوس الناس على ألا يتجاوز المقبول شرعاً ، كتفضيل =

ولكن ذلك لا يتجاوز إلى تأليهه من دون الله ، فالله خالق الوطن وخالق الإنسان فيه ومنه النعم التي نعم بها في الوطن ، وهو أحقُّ أن يعبد ويُشكر ويطاع ويُذكر .

والوطن كسائر أشياء الحياة الدنيا حبُّه إضافيٌّ نسبيٌّ يزداد -هذا الحب- بقدر ما يكون أقرب إلى الله أي بقدر ما يكون أهله قائمين بالحق ، وما يتجلَّى فيه من معاني الفضيلة ، وما يقوم في أرضه من مؤسسات ومعالم الدعوة والهدى ؛ ولهذا نجد أنَّ كثيراً من المؤمنين في مختلف أنحاء العالم يعلو حبُّ موطن الهدى والمقدَّسات في الجزيرة العربيَّة على حبِّ بلادهم التي نشؤوا فيها وتربَّوا في أحضانها ، والسبب في ذلك ما في هذه البلاد المكرَّمة من ذكريات النبوَّة ، وظهور الإسلام والحرمين الشريفين ومشاعر الحجِّ المعظَّمة ، وأن هذه البلاد أقرب من أوطانهم إلى التزام الإسلام وتطبيق شريعته .

إذا نظرنا في ضوء ما قرَّرناه مقارنين بين المملكة ودول أخرى نجد التميُّز السعودي في التعامل مع الناس من خلال فطرهم السَّويَّة خلافاً لتلك المجتمعات التي تدأب على صنع معايير أخرى خارج فطر شعوبها ، ثم التعامل معهم من خلالها وحملهم عليها ، مما يحدث شقاءً لدى هذه الشعوب بين ما هو قائمٌ في دواخلها وما يراد حملها عليه .

ولنمثِّل بمثال واحد لعلَّه يكون كافياً في هذا المقام :

« التربية الوطنيَّة » مادّةٌ دراسيَّةٌ - وقد تكون نشاطاً غير منهجيٍّ- تهدف إلى ربط الناشئة والشباب بوطنهم من خلال عديدٍ من القيم الفكريَّة والحضاريَّة

= أحد الشعراء المعاصرين وطنه على الجنَّة في قوله :

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي .

والاجتماعيَّة التي تصوغها مجموعةٌ معيَّنةٌ في الدَّولة ، تمثِّل خطَّها الذي اختارته ليكون هو الإطار الذي يتبلور فيه المجتمع كلُّه .

قد تكون هذه القيم مستمدَّةً من الرَّأسماليَّة أو الاشتراكيَّة ، أو ملفَّقةً منهما أو مجموعةً ترقيعيَّةً غير ملتئمة تسمَّى ميثاقاً أو كتاباً أحمر أو أخضر أو غير ذلك من الأسماء .

تسعى الدَّولة بأجهزتها التعليميَّة والإعلاميَّة والثقافيَّة إلى تكريسها في وجدان الناس، ولكنها تظلُّ قشرةً لا تلامس هذا الوجدان ، وإن لامسته أحدث هذا التلامس صراعاً بينهما، وتمضي السِّنُون ثم تزول الدولة أو تتغيَّر وجهتها فينكشف الأمر عن أنَّ تلك الجهود كان هباءً منثوراً ، وإفكاً وزوراً .

في المملكة لم يكن هناك مادَّةٌ اسمها « التربية الوطنيَّة » ولم يكن فقْدُ مادَّة بهذا الاسم ثغرةً في المنهج التعليمي ، والسبب أنَّ المنهج التعليمي بما اشتمل عليه من موادَّ شرعيَّة وأيضاً عربيَّة واجتماعيَّة يتضمَّن منهجاً تربويّاً متكاملاً للناشئ والشاب على القيم الفاضلة في الفكر والخلق والسلوك والنهوض الحضاري ، وهي القيم التي جاءتْ بها الشريعة الإسلاميَّة ، وهي قيمٌ إنسانيَّةٌ لأنها دعمٌ لما هو مستقرٌّ في فطر الناس الأصليَّة ، وهي كذلك قيمٌ وطنيَّةٌ لأن المملكة دولةٌ دستورها ومنهجها الإسلام .

وحينما اتَّجهتْ وزارة المعارف في الآونة الأخيرة إلى تدريس مادَّة باسم « التربية الوطنيَّة » لم يَعْنِ ذلك وما ينبغي له أن يعني استحداث قيم مجانفة لشريعة الإسلام الذي تدين به الدولة ، ولكنها تستهدف تأكيد ربط القيم الإسلاميَّة بالمجتمع السّعودي في ذهن الناس، حتى يكبر وهو يَعي أنَّ هذه القيم التي يدرسها ليستْ مجرَّد أوامر شرعيَّة مطالب بها في شخصيَّته الفرديَّة ، ولكنها

أيضاً نسيج المجتمع الذي يعيش فيه ، وسمتُ الوطن الذي هو جزءٌ منه ، وعضوٌ من أعضائه ؛ ولهذا نجد أنَّ مفردات مقرّر « التربية الوطنيَّة » تفصيلٌ للآداب التي شرعها الإسلام في العلاقات بين الناس والراعي والرَّعية ، وبين الإنسان والكون المحيط به والبيئة التي يعيش فيها ونحو ذلك .

وفي هذا المنحى أقصد الارتكاز على الأساس الفطري في تدعيم القيم وتزكيتها كان **تعويل المجتمع على علماء الشريعة ودعاة الإسلام في إشادة البناء الاجتماعي وتعليم الناس** ، والاعتماد على أسلوب الترهيب والترغيب فيما عند الله لا في أداء الشعائر التعبديَّة والأخلاق وإنما في العلاقات الإنسانيَّة والعمل الوظيفي والتعامل مع الأنظمة المختلفة .

والدولة والعلماء وعموم الناس يشعرون بأن هذا المنهج – التعويل على العلماء والدعاة . . . – هو المنهج الطبيعي والصحيح لدولة تحكم بشريعة الإسلام ، مما يثمر نتائج طيِّبةً في صالح الوطن والدَّولة والناس ، ويعمِّق تلك القيم .

أمَّا حينما يعزل العلماء والدُّعاة –كما في مجتمعات أخرى– عن التوجيه ، وتجفف منابع القيم الفاضلة نحو قيم بديلة يُعوَّل في تدعيمها على مفكِّرين وأنصاف مثقَّفين لا يحملون تلك القيم في شخصيَّاتهم ولا الولاء الحقيقي للوطن في نفوسهم ، ولا يلتقون مع الجمهور في خطٍّ مشترك من تلك القيم فإنَّ النتيجة هي فساد المجتمع وتباعد الناس عن الدَّولة وعن أولئك المفكِّرين الذين يشعرون بعزلتهم عن المجتمع ، وغربتهم عن الوطن شيئاً فشيئاً ، فلا يجدون أمامهم سوى اتِّهام هذا المجتمع الرَّافض لطروحاتهم بالتخلُّف والظلاميَّة والتراجع إلى الوراء ونحوها من الأوصاف التي تصدق عليهم أكثر مما تصدق على مجتمعاتهم[1] .

(١) وكثيراً ما يعترف هؤلاء المثقفون بفشلهم في قيادة مجتمعاتهم نحو الأفضل ، وأنهم ما بين انتهازيٍّ=

*** ربط القيم بالعبوديَّة لله :**

العبوديَّة لله – كما سبق – قاعدة القيم كلها فكريَّةً أو خلقيَّةً أو جماليَّةً أو حضاريَّةً في دين الإسلام ؛ ولهذا لا مناص لمجتمعٍ يمثل الإسلام رسالته والشريعة منهجه كالمجتمع السّعودي من ربط قيمه كلها بهذه العبوديَّة .

وهذا الربط واضحٌ في كل قسمات الحياة الاجتماعيَّة .

ومن صور هذا الربط تلك القاعدة التي بها تتأطَّر قيمٌ كثيرةٌ وعلاقاتٌ متنوِّعةٌ ، وهي قاعدة « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »[1] التي يرد الآخذ بها كل ما يتلقَّاه من الآخرين ؛ مدرِّسينً أو مسؤولين وقادةً إلى قيمة العبوديَّة لتحكم عليه بالقبول أو الرفض .

وهي قاعدةٌ مرفوضةٌ في كلِّ النظم العلمانيَّة خاصةً في المجال العسكري الذي يقضي بأن يكون صاحب الرتبة الأدنى منفِّذاً لأوامر ذي الرتبة الأعلى بدون أي مناقشةٍ فضلاً عن اعتراضٍ .

أمَّا في المملكة فإن الناشئ تُرسَّخُ في وعيه هذه القاعدة ضمن القواعد التي يُبنى عليها دينه مما يجعله مستعدّاً لتحقيقها في حياته في أيِّ إطار ، وتتأكَّد هذه القاعدة في المجال العسكري أكثر حيث يقسم المتخرِّجون عليها حين يتعهَّدون بـ « أن أطيع قادتي في غير معصية الله » .

ومن صور ربط القيم بالعبوديَّة في الحياة الاجتماعيَّة اشتراط القيم الخلقيَّة

= مصلحيٍّ، ومتغرِّب يجهل تراثه ودينه ، ومقلِّد استهلاكيٍّ لأفكار غيره ، ونحو ذلك من الأوصاف التي وصفوا بها أنفسهم . انظر : الإنتلجنسيا العربيَّة، مصدر سابق .

(١) أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي أنه ﷺ قال : « لا طاعةَ في معصية الله ، إنما الطاعة في المعروف » . انظر : جامع الأصول، ٨/ ٤١٦ .

والدين في طالب الزواج ، فلئن أصبح مجرَّد المهارة الحرفيَّة ، أو الشهادة أو الرَّصيد المالي سبب قبول الرجل زوجاً في المجتمعات التي نسيت الله وأهملتْ دينها حتى ولو كان هذا الرجل سيِّئ الأخلاق، منحرف الفكر، فاسد الدين، فإن المجتمع السعودي بحكم ما ورثه من تعظيمٍ للدين وأولويَّة له في الحياة ، قد نجا من ذلك المنحدر ، فوليُّ الفتاة يهمُّه دين الشخص وصلاحه وحسن سيرته ونُبل أخلاقه بالدرجة الأولى ، حتى وإن كان هذا الوليُّ نفسه ضعيف الالتزام بالدِّين ، ثم تأتي بعد ذلك المؤهِّلات الأخرى شهادةً وعملاً ونحوها .

لا شكَّ أنَّ لهذه القاعدة شذوذات تتمثَّل في بعض الذين أعمتْهم المادة ، أو لعبتْ بهم الأهواء ، فضحوا بموليَّاتهم ولَم يرعوا فيهنَّ إلاًّ ولا ذمَّةً ، ولكنهم يبقون شذوذاً يتحدَّث عنهم المجتمع بازدراءٍ وتهجينٍ لصنيعهم ، والقاعدة خلافهم .

ومن أمثلة ربط القيم بالعبوديَّة لله السعي لإبراز الوجه الديني لأيِّ قيمة يراد تكثيف اهتمام الناس بها ، حتى ولو كانتْ من القيم التي تمثِّلُ اهتماماً عالميّاً وتؤسس في غير المجتمع المسلم على الإنسانيَّة أو المصالح الماديَّة ، أو حقوق الأجيال المقبلة ونحو ذلك ، ومن أمثال هذه القيم : الإحسان إلى الحيوان ، والمحافظة على البيئة . . . إلخ .

والحقُّ أنه في المجتمع الذي تحكمه شريعة الله يصبح العمل كلُّه نشاطاً سياسيّاً أو اقتصاديّاً أو مسؤوليَّةً إداريّةً أو جهداً مهنيّاً أو غير ذلك جزءاً من عبوديَّة الشخص لخالقه، أي أنه ينطوي تحت قيمة العبوديَّة ، ولهذا نجد أنَّ الشخص كلما قوي تديُّنه لله صار أكثر انضباطاً في عمله وأمانةً في القيام بما وُكل إليه ، والعكس أيضاً صحيحٌ إذا رأيت إنساناً قليل الأمانة فيما أنيط به مهملاً في أداء عمله فإنك تحكم تلقائيّاً بأنه ضعيف الإيمان ناقص الالتزام بدينه علماً وعملاً .

* ومن زكاء القيم : **تلاشي التفرقة العنصريَّة** بدرجة كبيرة جداً ، حيث يشعر الناس على اختلاف أعرافهم القبليَّة ، وألوانهم بالتساويً والأخوَّة في المجالات الحيويَّة كطلب العلم، وتولِّي المسؤوليَّات ونحو ذلك ، وتدرك قيمة فاعليَّة هذه القيمة بأساسها الديني الشرعي إذا عرفنا أنَّ هذه الأخوة والمساواة قد تبلورتْ في مجتمعٍ كانت الرُّوح القبليَّة تسوده إلى عقود قليلة، وأنَّ مجتمعات أخرى حاول قادتها استحداث أنظمة تقاوم التفرقة العنصريَّة ، في ظلِّ وضعٍ حضاريٍّ يساعد على سرعة التغيير ، ولكن هذه التفرقة ما تزال ضاربةً أطنابها في حياة تلك المجتمعات تهدأ أحياناً وتنبعث عند أصغر شرارةٍ تُذْكِي نيرانها ، والمجتمع الأمريكي نموذجٌ لذلك .

* **الرَّابطة القرابيَّة** : « من قيم المجتمع المسلم : أنَّ بين الولد وأبيه رابطةً أبديَّةً لا تنفصم عراها ببلوغ الابن رشده، أو باستقلاله الاقتصادي ، أو بزواجه، كما هو عند الغربيِّين الذين يصبح الابن عندهم بعد أن يكبر ويتزوَّج كأنه شخصٌ غريبٌ عن أبويه ، لا يكاد يعرفهما إلا في المناسبات إن عرفهما، بل إن الإسلام ليوسِّع دائرة الأسرة حتى تشمل الأقارب من الأصول والفروع والعصبة وكل ذي رحم محرَّم من الرجال والنساء ، فالأجداد والجدات والأحفاد والأسباط والأعمام والعمات والأخوال والخالات وأولادهم . . . كل هؤلاء أرحامٌ يجب أن توصل، وقربةٌ يجب أن تُرعى ، ولها حقوقٌ يجب أن تؤدَّى من الزيارة والمودَّة والإحسان، إلى وجوب النفقة والرعاية بالمعروف : ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً** ﴾[1] ﴿ **وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ** ﴾[2]»[3]. هذه القيمة الجليلة « الرابطة العائليَّة »

---

(١) الآية رقم (١) من سورة النساء . (٢) الآية رقم (٧٥) من سورة الأنفال .

(٣) ملامح المجتمع المسلم ، ص ١١٣ ، مصدر سابق .

بما تثمره من حميميَّة وتكافل اجتماعيٍّ وشعور متبادل بالولاء بين الإنسان ومن حوله لا يتجلَّى طهرها وحيويَّتها إلا في مجتمعٍ يطبّق شرع الله ويعي فيه الفرد مسؤوليَّته في الوجود عبوديَّةً لخالقه ، وإحساناً وبراًّ بالخلق ، وإعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه .

ولهذا فإنَّ الانحراف الذي وقع في الرابطة العائليَّة فأدَّى إلى جفاف العلاقات ، والتفكُّك الأسري وشعور الشخص بالغربة بين أهله وقرابته لم ينحصر في الغربيِّين غير المسلمين ، وإنما حدث في كثيرٍ من المجتمعات المسلمة التي صارتْ تحكم العلاقات بين أفرادها معاييرُ أخرى – غير الشريعة – كالأنانية الفرديَّة، وحريَّة الاستقلال التام بين الوالدين وأبنائهم وبين الإخوة والمصالح الشخصيَّة وغيرها، حتى إنك لا تفرِّق بين هؤلاء وأولئك الكفار في طبيعة هذه العلاقات .

في المجتمع السُّعودي كانت العلاقات تأخذ منحًى قبليّاً تتكثَّف فيه لحمة العلاقة القبليَّة على حساب العلاقة مع الآخرين، وكانت العلاقة العائليَّة قائمةً على مأثور الشرع ودافع الفطرة والمروءة إكراماً للوالدين واحتراماً للكبير من الإخوة والأعمام ، واهتماماً بالصغير ونحو ذلك، فلما تشكَّل الكيان السعودي على يد الملك عبد العزيز سعى من خلال العلماء والدُّعاة ثم التعليم والإعلام إلى تهذيب العلاقات الاجتماعيَّة وفق منظور الشرع والقيم الفطريَّة الإنسانيَّة، ومنها العلاقات العائليَّة التي كان الملك عبد العزيز نفسه نموذجاً في الوفاء بها بصورتها السَّامية، وقد أسلفنا الإشارة إلى ذلك في تعامله مع والده وإخوته وسائر أقاربه ، وكان من ضمن ما أوصى به ابنه الملك سعود – رحمه الله – حينما بُويَع بالعهد قوله : « . . . وأوصيك بالنظر في أمور المسلمين عامةً، وأمر أسرتك خاصةً ؛ اجعل كبيرهم والداً ومتوسِّطهم أخاً، وصغيرهم

ولداً، وأهنْ نفسك لرضاهم، وامح زلَّتهم، وأقِلْ عثرتهم، وانصح لهم، واقض لوازمهم بقدر إمكانك »[1].

وإليك صورتين واقعيَّتين تعكسان نموذج العلاقات القرابيَّة في المجتمع السُّعودي خلال العقود التي سبقتْ الانفتاح الحضاري في أواخر القرن المنصرم :

الأولى : التماسك العائلي ، وارتباط الولد بإخوانه وأعمامه وأبنائهم بسبب وحدة السَّكن أو تجاوره ، مما يجعل العائلة الكبيرة المكوَّنة من عدة أسرٍ تجتمع في بعض الوجبات الرئيسة ، كالغداء أو العشاء ، فضلاً عن اللِّقاءات الجامعة التي تكون بسبب قدوم أحد وُجهاء العائلة بعد غُربة عن البلدة ، ومثل ذلك الاجتماع التخييمي الذي يقوم به الناس خلالَ المواسم الرَّبيعيَّة الخصبة في المروج الخضراء لأيامٍ قد تمتدُّ إلى شهرٍ أو شهرين ، ويسمَّى التخليف .

الثانية : الشعور بالمسؤوليَّة الاجتماعيَّة من قبل كل فردٍ من العائلة ، وهذا الشعور له جانبان :

الأوّل : هو أن شدة الحياة والعوز الذي يتعاظم في بعض السنين حتى يلجئ الناس إلى الهجرة عن مواطنهم أعواماً متواليةً ، يجعل الناس يشعرون بضرورة التضامن فيما بينهم، والبعد عن الاستئثار لدى القادر هذا اليوم ، خشية الغد الذي يكون فيه معوزاً ، ومن ثم محتاجاً لغيره، فضلاً عمَّا استقرَّ في روع الناس من توجيهات الدين الإسلامي في البر والصِّلة، وإكرام الجار، وذي القربى، ومن الأريحيَّة العربيَّة المتأصِّلة في نفوس الناس .

---

(١) الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز ، للزركلي ص ١٥٨ ، مصدر سابق .

الثاني: أنَّ معايشة الفرد لعائلته بما لها من سمت محافظ، وكرامة عريقة، تجعله يشعر بمسؤوليَّته تجاهها، أكثر من مسؤوليَّته تجاه نفسه، وهذه المسألة واضحةٌ في الواقع، فإن الإنسان قد لا يكترث كثيراً بسبِّك شخصه، ولكنَّك لو تعرَّضتَ لعائلته بالسَّبِّ لثارتْ ثائرته، ودافع عن كرامتها التي هي كرامته.

هذا الشعور تجاه العائلة يتجاوز هذا الأمر إلى أن يجعل الفرد يتحاشى الوقوع في المزالق الخلقيَّة، والوَرْطات التي لا تُحمد عواقبها، رعايةً لكرامة عائلته، وحفاظاً على سمتها المعروف، بل وحذراً من «الضغط الاجتماعي» الذي ستمارسه العائلة تجاهه لو وقع في شيءٍ من هذا، ولو بالنظر الشَّزْرِ، والقذف بالكلمات المحمومة عليه، أو على والديه أو أولاده.

ولهذا نجد أنَّ الأفراد وحتى الأسر الصَّغيرة التي ابتعدتْ عن عوائلها الكبرى سكناً وتواصلاً، خاصَّةً التي تغترب في المُدن الكبرى المختلطة والمجتمعات المنوَّعة، يضعف إحساس فردها الاجتماعي، وولائه لعائلته، ويلاحظ أنَّ الذي ينشأ في هذه الغربة يلازمه شعورٌ بفقد الهويَّة، أو على الأقلِّ ضعف الشعور بها، ولا تعوِّضه عن ذلك «شلله وبشكاته» التي قد يمنحها حبَّه وولاءه وطمعه في ملء فراغه، خاصَّةً إذا كان هذا الشاب تائهاً شارداً عن الحقِّ.

وإزاء هذه المسؤوليَّة الاجتماعيَّة التي يشعر بها الفرد تجاه عائلته هناك شعورٌ جماعيٌّ من العائلة تجاه أي فرد منها، لا ينحصر في زيارته إذا مرض، وتعزيته إذا أصيب، وإجابته إذا دعا فحسب،

وإنما يتجاوز ذلك إلى الاحتجاج على بعض تصرُّفاته التي تشينُ ، فقد يجتمع كبار العائلة للتباحث في أمر فلان منها ، إذا شاع عنه ما لا يليق بالعائلة ، ويكلِّمون أباه ، وقد يتَّخذونَ موقفاً أشدَّ صرامةً ، وبالمقابل فقد تجتمع العائلة لاستنقاذ أحد أفرادها من مشكلة وقع بها بالتوسُّط لدى أفراد المشكلة الآخرين ، سواءٌ كانتْ جهات رسميَّة أو غير رسميَّة ، وبتحمُّل ما حُمِّله بسبب هذه المشكلة .

وعموماً فإن ما وجَّه إليه الإسلام من قيم سامية في العائلة الإنسانيَّة ، وجد في العائلة مجالاً تطبيقيّاً خصباً ، برّاً وإكراماً واحتراماً للكبير وحنوّاً على الصَّغير ، ورعايةً للعهد وحفظاً للحرمات »[1] .

ثم انفتح المجتمع السعودي على المجتمعات المحيطة ، وحدثتْ تحوُّلاتٌ مدنيَّةٌ وثقافيَّةٌ أدَّتْ إلى تغيُّرات في الحياة الاجتماعيَّة ، طفرةً ماديَّةً بعد حالات فقر أو كفاف ، وحياةً مدنيَّةً معقَّدةً بعد حياة ريفيَّة بسيطة ، وتفاوتاً ثقافيّاً بين جيلين ، جيلِ الآباء غير المتعلِّمين وجيل الأبناء المتعلِّمين ، فكان لهذه التغيُّرات أثرها في العلاقات العائليَّة التي أصابها الجفاف ، والتقاطع والاستعاضة عنها بالشِّلل وزملاء العمل أو الدراسة ، والانشغالات الشخصيَّة ، وعدم المبالاة بقضايا عائلته إذا لم يكن ثَمَّ مردودٌ ماديٌّ خاصٌّ يرجع إليه .

ولم يكن هذا الوضع السَّلبي الذي آلتْ إليه العلاقات العائليَّة مقبولاً من الناحية الشرعيَّة ولا من الناحية الإنسانيَّة ؛ ولهذا كان يؤرِّق نفوس الكثيرين من الناس هذا الوضع على الرغم من وقوعهم فيه ، وزاد هذا الأرق حتى أفرز رغبةً صادقةً في العودة إلى التواصل العائلي واتِّقاء التفكُّك الذي عانوا من آثاره

(١) من بحثٍ للمؤلف بعنوان : الطهر العائلي . سينشر قريباً ، ص ٦١ ، ٦٢ .

السيِّئة ، وقد حاول الناس في تحقيق هذا التواصل واستعادة الروح العائليَّة حيويَّتَها اصطناع عددٍ من المظاهر الجماعيَّة المناسبة لأوضاع الناس الآن .

ومن أبرز هذه المظاهر :

- الدَّوريات ؛ وهي اجتماعٌ عائليٌّ ثابتٌ غالباً ما يكون شهريّاً، يلتقي فيه غالب أفراد العائلة في مدينة واحدة أو أكثر، وهو أكثر المظاهر انتشاراً حيث يندر -الآن- وجود عائلة لا دوريَّة لها .
- صندوق العائلة، وهو حسابٌ خاصٌ للعائلة في أحد البنوك تقوم على تمويله العائلة، ويصرف منه على المحتاجين منها حسب مواصفات معيَّنة .
- الاستراحات ، ومثلها المخيمات التي تقام للاجتماعات العامة للعائلة في الإجازات أو المناسبات العائليَّة أو غيرها .

وهناك فضلاً عن المظاهر العامة للتواصل العائلي مبادراتٌ فرديَّةٌ من أشخاص في العائلة تستهدف زيادة إحياء هذا التماسك العائلي وتقريب القلوب والنفوس ، وفق ما وجّه الشرع الشريف .

ولا شكَّ أن هذه الروح الرَّاغبة في إشادة قيم الولاء القرابي بمظاهرها المتعدِّدة منبثقةٌ من الجوِّ الذي تعيش فيه، ومدعومةٌ منه ، وهو الجوّ الإسلامي على المستويَيْن الخاص والعام .

* من القيم التي تفرَّد المجتمع السعودي بدعمها وتزكيتها في ظلِّ تحطيمٍ عالميٍّ لها تحت شعارات الحريَّة والمساواة : **عفَّة المرأة وحشمتها** .

إنَّ العفة مسلكٌ فطريٌّ للأنثى لا تشعر بإنسانيَّتها الحقيقيَّة إلا باحتفاظها بها، وبحشمتها التي تحفظها عن الأدناس ، فإذا تحلَّلت المرأة من ضوابط العفَّة والصِّيانة فتبرَّجتْ وسفرتْ واختلطتْ بالرجال ، فإنها تكون قد انحرفتْ عن

فطرتها الأنثويَّة الإنسانيَّة ، وتحوَّلتْ إلى مخلوقٍ أحطَّ من الحيوان في شعورها هي عن نفسها ، وفي شعور الرجال حتى من المستمتعين بها ، حتى إنَّ العاهر إذا ارعَوَى واتَّجه إلى إقامة رابط إنسانيٍّ بامرأة بعقد الزواج يأنف أن يرتبط بواحدةٍ من اللائي كان يفجر بهنَّ ، أو اشتهرنَ بغير العفَّة والصِّيانة .

ولقد كان من أسباب انهيار عددٍ من الحضارات تهتُّك المرأة وفقدها طبيعتها الأنثويَّة .

وقد جاء الإسلام ليعيد للمرأة كرامتها وإنسانيَّتها التي أذهبتْها الجاهليَّات السَّابقة على بعثة محمَّد ﷺ ، فصانها من مُدَنّسات الفضيلة ، وأمرها بالاحتشام ، ونهاها عن التبرُّج والسّفور والاختلاط المريب بالرجال ، وبين لها أنها مع أخذها بهذه المعالم الهادية ينبغي أن تُؤدِّيَ دورها الاستخلافي كالرجل في هذه الحياة ، طلباً للعلم ، وعملاً بما يحقِّق مصالح نفسها وبيتها ومجتمعها ، وما يحقِّق لها فلاحها الأخروي : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[1] .

وقد استوعبت المسلمةُ في القرون الأولى هذه التوجيهات الشرعيَّة فقدَّمت النموذج النسائي الأعلى في الحضارة الإسلاميَّة التي ازدهرتْ في قرون الإسلام الأولى .

أمَّا المرأة في العصور الحديثة فإنها بسبب فلسفات ونظريَّات إلحاديَّة وضعها أناسٌ مَوْتورون من الدِّين وإنسانيَّة الإنسان من الفلاسفة وعلماء الاجتماع ، وبسبب حركات اجتماعيَّة قامتْ لتنفيذ هذه الفلسفات والنظريَّات باسم تحرير المرأة ، وإعطائها حقوقها قد انحدرتْ في الغرب نحو هاوية الضَّياع ،

---

(١) الآية رقم (٩٧) من سورة النحل .

فأجبرتْ على الاختلاط ، واضطرَّتْ إلى ممارسة أعمال الرجال ، واستبيحتْ حرمتها الأنثويَّة حينما دُفعَتْ إلى الرَّذيلة الصَّريحة ، وجعلتْ هذه الأحوال هي الوضع الطَّبيعي الذي تاهَتْ عنه المرأة قديماً ، وقرَّرتْ بعض الدِّراسات النفسيَّة أنَّ خلوَّ الفتاة من صديق تعاشره، وبقاء البكارة في المرحلة الجامعيَّة دليلٌ على مرضٍ نفسيٍّ لدى الفتاة، وانطوائيَّةٌ وشعورٌ بالاغتراب تحتاج إلى علاجٍ[1] .

وقد قذف الغرب بهذه الحمى القاتلة إلى عالمنا الإسلامي عبر قنوات عديدة ، فسلكتْ مجتمعاتٌ مسلمةٌ عديدةٌ مسلك الغرب في كلِّ ما يتعلَّق بالمرأة تبرُّجاً وسفوراً ، واختلاطاً وإباحةً للعلاقات غير المشروعة، وتنظيماً لممارسة الرَّذيلة، ومتاجرةً بجسم المرأة في الإعلانات، وأغلفة المجلات، وأفلام الدَّعارة، والجذب السِّياحي ، ومحاربة للحجاب وللعلاقات الشَّرعيَّة بين الرجل والمرأة كما في منع تعدُّد الزوجات . . . إلخ .

ولقد عانى المسلمون الملتزمون بدينهم في هذه المجتمعات ، ولَقُوا عَنَتاً شديداً ؛ لأن المسلم الملتزم إمَّا أن يحافظ على أهله وبناته فيعتزل المجتمع المدني ويحرم نساءه من الدِّراسة والعمل، وإمَّا أن يداخل هذه الحياة فتصيبه وأهله ويلاتها .

في المجتمع السَّعودي كان هناك خطٌّ آخر .

عفَّةُ المرأة وصيانة عرضها من لوث الرَّذيلة ليس بوضع مساومة أو جدل لا من الدَّولة ولا من الشعب، فلم يكن يدور بخَلَد أيٍّ من قادة الدَّولة أو علمائها ، أو حتى عامة شعبها أن تسير المسلمة في ذلك المسلك الإباحي

(١) حسبنا مثلاً نظريات فرويد التي تجعل الحياة كلَّها انبثاقاً جنسيّاً ، وفلسفة الوجوديَّة « السَّارتريَّة » في تحلُّلها الخلقي .

التبرُّجي الذي سلكتْهُ أختها المسلمة في كثير من المجتمعات تأثُّراً بالغربيَّات؛ لأن الأمر هنا محسومٌ عرفاً وإنسانيَّةً « مروءةً » وشرعاً .

ومن ثَمَّ بقيتْ هذه العفة موضع رعاية وتأكيد وتكريس من قبل العلماء والدُّعاة وبرامج الدَّولة والعرف الاجتماعي، وظلَّ مسلكُ التهتُّك مجال مقاومةٍ واستبعادٍ من كلِّ الأطراف .

ولكن ذلك ما كان يعني قطع المرأة عن تحقيق وجودها الإنساني في الحياة ، ومشاركتها شقيقها الرجل في بناء الكيان العائلي والاجتماعي .

لقد فتحتْ لها المدارس والجامعات ، وفتحتْ أمامها أبواب العمل المناسب لطبيعتها ، ومارستْ وظيفتها الاجتماعيَّة والثقافيَّة في مجالات الفكر والإعلام والجمعيَّات النسائيَّة وغيرها .

وحقَّقتْ تقدُّماً مشهوداً في القيام بدورها بما يضاهي بل يفوق زميلاتها في مجتمعات أخرى .

واليوم والغرب ومن ثَمَّ المتتبِّعون خطاه من العرب والمسلمين بدأ يدرك من خلال عقلاء مفكِّريه ، وأصحاب التجارب أنفسهم في ميادين حركة المرأة ما جَرَّه مسلكها التحريري من ضياع وانتكاس للأحوال، واضطراب في الحياة الأسريَّة أوّلاً والمعاشيَّة ثانياً ، والعلاقات الجنسيَّة ثالثاً ، والوجود الحضاري كلّه أخيراً ، وهو لذلك يسعى لوضع مسالك جديدة لحياته، يتفادى بها تلك المصائب التي جلبتها عليه مسالكه السَّابقة ، ولن يجد في غير شرع الله منهجاً ينقذه من تلك المصائب .

أمَّا العالم الإسلامي فإنه يدرك الآن هذه الحقيقة جيِّداً ، وسيجد أنَّ أقرب

نموذجٍ تطبيقيٍّ للحفاظ على قيم العفَّة وحفظ كرامة المرأة وحفظ الأعراض هو المجتمع السُّعودي الذي تبلورتْ فيه هذه القيم نتيجةَ تطبيقه لشريعة الإسلام .

هذه إلماحةٌ إلى آثار تطبيق شريعة الله في هذا المجتمع ، في رعاية القيم الصَّالحة وتزكيتها ، لتظلَّ قواعد هاديةً تقوم عليها حياة الإنسان ، فتسمو متعاليةً عن الحياة الحيوانيَّة التي يتردَّى إليها من انحرف عن هذه القواعد شخصاً أو مجتمعاً .

ولا شكَّ أنَّ بشريَّة المجتمع السعودي تقضي بأنه لا يمثِّل الكمال في التزام هذه القيم ، ولا في تمثُّل جميع أفراده لمقتضياتها ، فقد تبرز في المجتمع ظواهر لا تتسق مع القيم الفاضلة لأسباب متعدِّدة ، وقد يُوجد في المجتمع أفرادٌ يَشذُّون عن مسيرته بسبب تأثيرات خاصَّة بهم ، ولكن عموم المجتمع ونظامه العام هو مدار الحكم الذي يقف عنده المتأمِّل في الواقع لرصده ودراسته .